العلوم عند العرب

لا يخفى ان العرب كانوا قوماً اهل باديةٍ وأنعام يقضون دهرهم في ارتياد مواقع الغيث وانتجاع منابت الكلأ فلا يزالون بين تطنيبٍ وتقويض وحلٍ وترحال وهي حالةٌ منافية لطبيعة العلم وما يقتضيهِ من القرار والسكون والتوفر على البحث والاستدلال وذلك فضلاً عما كان بينهم من الغارات والمغازي المتواصلة وانقطاع كل قبيلٍ بنفسهِ بحيث لم تستتبّ بينهم الصلة الاجتماعية التي يكون عنها نمآء المدارك واتساعها واثر هذا الانقطاع بادٍ في لغاتهم حتى تجد للمسمى الواحد عدة اسمآءٍ قد تبلغ الى المئات وتجد اللفظ الواحد يُطلق على عدة معانٍ متباينة وقد يُطلَق على معنيين متضادَّين وهي نهاية البعد والاختلاف . فلما جآء الاسلام وضمّ شتاتهم وجمع اطرافهم اشتغلوا بالفتوح وانصرفت عزائمهم الى توسيع نطاق ملكهم ولا سيما مع ما أُوتوا من الظفر والتغلب على الممالك فكانت تلك الحال ابعد عن الاشتغال باسباب العلم والتفرغ لمباحثهِ وما زال امرهم ذلك الى ان قضوا نهمتهم من الفتوح ورسخت قواعد دولتهم ورأوا في اكثر الممالك التي وطئوها من اسباب الحضارة والتبسط في انواع الفنون ما حبب اليهم معاناة العلوم والصنائع فانصرفوا الى طلبها ولم يقع لهم ذلك الا في اثنآء المئة الثانية للهجرة بعد ما دوّخوا الآفاق وزال ما كان بينهم من المناهضات والمشاحَّات على الخلافة وغيرها . على انهم لم يغفلوا في تلك الفترة عن العناية بتدوين لغتهم وتحرير احكام شريعتهم وهو امرٌ ضروريٌّ في مثل تلك الحال لتقرير قواعد دينهم وصيانة ألسنتهم من

الفساد ولا سيما بعد اختلاطهم بالاعاجم مما دعاهم الى تدوين الفاظ اللغة وضبط احكامها على ما هو مشهور من وضع التصانيف فيها مما لا حاجة الى بسطهِ هنا . قال ابو الفرج المَلَطيّ في تاريخهِ ونقلهُ صاحب كشف الظنون قال القاضي صاعد بن احمد الاندلسيّ ان العرب في صدر الاسلام لم تعنَ بشيء من العلوم الا بلغتها ومعرفة احكام شريعتها حاشا صناعة الطبّ فانها كانت موجودةً عند افرادٍ منهم غير منكورةٍ عند جماهيرهم لحاجة الناس طرًّا اليها وذلك منهم صونًا لقواعد الاسلام وعقائد اهلهِ عن تطرُّق الخلل من علوم الاوائل قبل الرسوخ والإحكام حتى يُروَى انهم احرقوا ما وجدوا من الكتب في فتوحات البلاد . فهذه كانت حال العرب في الدولة الأُمَوية فلما ادال الله تعالى للهاشمية وصرف الملك اليهم ثابت الهمم من غفلتها وهبّت الفطن من ميتتها وكان اول من عُني منهم بالعلوم الخليفة الثاني ابو جعفر المنصور وكان مع براعتهِ في الفقه كلفاً بعلم الفلسفة وخاصةً بعلم النجوم . ثم لما افضت الخلافة فيهم الى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هرون الرشيد تمم ما بدأ بهِ جدّهُ فاقبل على طلب العلم في مواضعهِ وداخل ملوك الروم وسألهم صلتهُ بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا اليهِ منها بما حضرهم فاستجاد لها مَهَرة التراجمة فتُرجمت لهُ على غاية ما امكن ثم حرّض الناس على قرآءتها ورغَّبهم في تعلمها . اه

هذه مبادئ النهضة العلمية عند العرب تقدمهم فيها الخلفآء واعزُّوا العلم واهلهُ فهبَّت بهم ريحهُ وارتفع منارهُ ولم يمضِ حينٌ من الدهر حتى حفلت بغداد ونواحيها بالعلمآء والمصنفين وزخرت خزائنها بالكتب النفيسة

وامتدت شعلة الطب والتدريس الى سائر المدائن العربية حتى قيل ان الرشيد امر ان يُبَنى بجانب كل جامع مدرسة. ولم يكن الحال بالمغرب على دون ما كان عليهِ بالمشرق وكان البادئ بنشر العلم هناك والداعي اليهِ الخليفة عبد الرحمن الأُمَويّ الملقب بالناصر فجعل مدينة قُرطُبة التي هي مقرّ الخلافة داراً للعلم على نحو ما كانت بغداد في المشرق وحشد الكتب من افريقيا وبلاد فارس ومصر والآفاق العربية حتى جمع فيما يقال اربع مئة الف مجلد وقيل ست مئة الف وانتشرت هذه الرغبة في العامة حتى كانت الكتب من انفس ما يُتغالى بهِ واشتدّ حرص الناس على جمعها وانتساخها والمغالاة باثمانها حتى يقال ان الاندلس كان فيها في اوائل القرن الخامس للهجرة سبعون مكتبة حافلة والناس على دين ملوكهم

وكان اول ما جنحوا اليهِ من العلوم الطبّ والتنجيم والفلسفة وذلك لما اشتهر عندهم من ان الانسان لا يكون طبيباً حتى يكون منجماً ولا يكون منجماً حتى يكون فيلسوفاً فامر ابو جعفر المنصور طبيبهُ جرجيس بن بختيشوع فعرَّب لهُ كتباً في الطب استخرجها من الفارسية وعرَّب لهُ محمد بن الفَزاويّ كتاباً من تآليف الهند في صناعة التنجيم يسمى بالسند هند وامر عبد الله بن المقفَّع المشهور معرّب كتاب كليلة ودمنة فعرَّب لهُ كتباً في المنطق عن اليونانية ثم تتابع الخلفآء على ذلك من بعدهِ واشهرهم هرون الرشيد وولدهُ عبد الله المأمون وكان الرشيد لما فتح انقرة وجد فيها كثيراً من كتب العلوم فامر بحملها الى بغداد وأمر طبيبهُ يوحنا بن ماسوَيه بتعريبها وقام بعدهُ المأمون وكان اعظم الخلفآء واعلمهم وكان عارفاً من اللغات اليونانية والعبرية

والهندية والفارسية فضلاً عن تبحرهِ في الفلسفة والهيئة فاكثر من نقل كتب اليونان الى العربية وكان عنده عدةٌ من المترجمين منهم طبيبهُ حُنَين بن اسحق العباديّ وهو الذي عرَّب كتاب اقليدس وكتاب المجسطي لبطلميوس وكتاب ابولونيوس في المخروطات وكثيراً من كتب الحكمة والطب من تآليف ابقراط وجالينوس وغيرهما . وورد في بعض كتب الافرنج ان المأمون عقد عهد صلحٍ مع ميخائيل الثالث[1] ملك الروم على ان يستنسخ لهُ جميع المصنفات اليونانية ووجه بعثاً يحمل اليهِ من جزيرة قبرس كل ما وُجد هناك من الذخائر العلمية وكانت الجزيرة قد دخلت من عهدٍ قريب في حوزة الاسلام

ومن مشاهير المترجمين في الدولة العباسية خلا من ذكر اسحق بن حُنين المذكور وكان يعرّب كتب الحكمة والطب وثابت بن قُرّة وكان يعرّب كتب الحكمة وتوفي في ايام المقتدر ويعقوب بن اسحق الكندي وكان في ايام المتعصم ويوحنا بن البطريق وكان اميناً على ترجمة الكتب الحكمية وحُبَيش بن الأعسم وكان ينقل عن الكتب اليونانية والسريانية وقسطا بن لوقا البعلبكّي الفيلسوف الرياضيّ وغيرهم . واشهر الكتب التي ترجموها عن فلاسفة اليونان مؤلفات فيثاغورس في الحساب والموسيقى وغيرهما من العلوم الرياضية ومؤلفات افلاطون في النفس والسياسة المدنية وكتب ارسطو في المنطق والحكمة والعلم الطبيعي والحيوان والنبات وكتب ابقراط وجالينوس في الطب ودسقوريدس في الادوية واقليدس في الهندسة

---

(١) كذا في الاصل ولعل الصواب مع تيوفيلوس ابيهِ لان ميخائيل ملك بعد موت المأمون

وبطلميوس في الهيئة وغير ذلك

وكان عند المأمون جماعةٌ كبيرة من المنجمين منهم حبش الحاسب المَرْوَزيّ صاحب الزيج الممتحَن واحمد بن كثير الفرغاني صاحب المدخل الى علم هيئة الافلاك ومنهم عبد الله بن سهل بن بوبخت ومحمد بن موسى الخوارزمي وكان قيّم خزانة كتب المأمون ولهُ مصنفٌ في الجبر والمقابلة ألّفهُ بامر المأمون وهو اول كتابٍ كتب في العربية في هذا الفنّ ومنهم ما شآء الله اليهودي وكان في زمن المنصور وعاش الى ايام المأمون ومنهم يحيي بن ابي منصور وعباس بن سعيد الجوهري وكانا كبيرَي المنجمين عند المأمون . قال في كشف الظنون قال القاضي ابو القاسم صاعد الاندلسي في كتاب التعريف بطبقات الامم لما افضت الخلافة الى عبد الله المأمون وطمحت نفسهُ الفاضلة الى درك الحكمة ووقف العلمآء في وقتهِ على كتاب المجسطي وفهموا صورة آلات الرصد الموصوفة فيهِ جمع علمآء عصرهِ وامرهم ان يصنعوا مثل تلك الآلات وان يقيسوا بها الكواكب ويتعرفوا احوالها بها كما صنعهُ بطلميوس ومن كان قبلهُ ففعلوا ذلك وتولوا الرصد بها بمدينة الشمَّاسية وبلاد دمشق (١) من ارض الشأم سنة ٢١٤ فوقفوا على زمان سنة الشمس الرصدية ومقدار ميلها وخروج مراكزها ومواضع اوجها وعرفوا مع ذلك بعض احوال الكواكب من السيارة والثابتة ثم قطعهم عن استيفآء عملهم موت الخليفة المأمون سنة ٢١٨ فقيدوا ما انتهوا اليهِ وسموهُ الرصد المأموني . وكان الذي تولى ذلك يحيي بن ابي منصور كبير المنجمين في عصرهِ وخالد بن عبد الملك المروزي

(١) عبارة ابي الفرج « بالشماسية ببغداد وجبل قاسيون بدمشق »

وسند بن عليّ والعباس بن سعيد الجوهري والف كلٌّ منهم في ذلك زيجاً منسوباً اليهِ وكان ذلك اول رصدٍ في مملكة الاسلام . انتهى بتصرفٍ يسير

ورصد المأمون ميل دائرة البروج رصدين احدهما في بغداد تولاهُ يحيى بن ابي منصور وسند بن علي وعباس بن سعيد فوجدوا ميل دائرة البروج ٢٣° ٣٥َ وقيل ٢٣° ٣٣َ . والثاني في دمشق تولاهُ خالد بن عبد الملك وسند بن عليّ وابو الطيّب وعليّ بن عيسى الملقب بالاسطرلابي فوجدوا الميل المذكور ٢٣° ٣٣َ ٥٢ً

ومن اعمال المأمون المخلدة في كتب العلم والتاريخ قياسهُ للدرجة من خط نصف النهار على ما بسطنا الكلام فيهِ في الجزء السابع عشر من البيان (صفحة ٦١٠ وما يليها) تولى ذلك لهُ ابناء شاكر محمد واحمد والحسن وكانوا من مشاهير علماء الهيئة . ولهؤلاء عدا ذلك رصدٌ لميل دائرة البروج وحركة نقطتي الاعتدال وكان لهم مرصدٌ على جسر بغداد فظهر لهم بالرصد هناك ان تكبد الشمس في المنقلب الشتوي سنة ٢٣٧ ليزدجرد وهي سنة ٢٤٨ للهجرة كان على ٣٣° ٥َ ورصدوا في السنة التالية تكبدها في المنقلب الصيفي فكان على ٨٠° ١٥َ فاستخرجوا ان عرض بغداد عند مرصد الجسر يكون ٣٣° ٣٥َ وان ميل دائرة البروج يكون ٢٣° ٣٥َ . ولتحقيق مبادرة الاعتدالين رصدوا قلب الاسد سنة ٢٢٦ وسنة ٢٣٣ فتبين لهم انهُ في هذه الفترة تقدمت المبادرة ٦َ ١٥ً فتكون كميتها ٥٣ً ٣٤ً ً في السنة وهي اكثر من الحقيقة بثلاث ثوانٍ ونصف ثانية على التقريب

وجاء بعد هؤلاء ثابت بن قرّة وهو خرّيج محمد بن موسى بن شاكر

احد الثلاثة المذكورين ولهُ مصنفٌ طبَّق فيهِ الجبر على الهندسة وهو اول من تفطن للتغير في ميل دائرة البروج وكان هيرخس و بطلميوس قد وجدا ان ميل دائرة البروج ٢٣° ٥٢َ فلما اعاد الرصد وجدهُ ٢٣° ٣٣َ ٣٠ً اي اقل بمقدار ١/٢ ١٨َ ٠ ثم رصد نقطتي الاعتدال فوجد ان لهما حركتين احداهما مستقيمة والاخرى متقهقرة بحيث وجد انهُ لا يمكن ضبط طول السنة برجوع الشمس الى احدى هاتين النقطين فعاد الى طريقة الكلدان من رصد الشمس بالقياس الى الثوابت فخرج معهُ لطول السنة ٣٦٥ يوماً و ٦ ساعات و ٩ دقائق و١١ ثانية وهو يقرب مما حققهُ المتأخرون على فرق ٥ ثوانٍ (ستأتي البقية)

علاج الملسوع

لحضرة النطاسي الفاضل الدكتور محمد العشماوي الحكيم
مفتش صحة مركز شبراخيت بالبحيرة

وعدنا في الجزء الماضي من الضيآء المنير ان نأتي على بيان تأثير السم في الملسوع وطرق مداواتهِ وانجازاً لوعدنا نذكر ذلك بطريق الايجاز فنقول اما تأثير السم في الحيوانات ذات الدم الحارّ فهو فضلاً عن اتلافهِ للكرات الحمرآء للدم يؤثر تأثيراً شديداً على المراكز العصبية ويكون منهُ حصول القيء المتواتر والتشنجات العصبية المتكررة ٠ ولنذكر هنا طرفاً من اعراض نهش الافاعي عند الانسان والادوية التي وُصِفت لها وافضل الطرق لمداواتها

والافاعي انواعٌ عديدةٌ اشدّها خطراً هو الثعبان ذو الجرس او الثعبان الجلجلي وهو يسكن اميركا وافظعها ما كان منهُ يسكن اميركا الجنوبية وليس لهذا الحيوان وجود في مصر الاَّ اني أتذكر اننا حينما كنا نتلقى هذا الفصل على المرحوم علي بك رياض استاذ علم المواليد الثلاثة في المدرسة الطبية ذكر لنا انهُ رأى هذا الثعبان في نيل الروضة بمصر وشاهد الحراشيف الرنانة التي في ذنبهِ وسمع منهُ الصوت الرملي حال مشيهِ

والمشهور انهُ لا يوجد في مصر من الثعابين السامةَ سوى الثعبان الناشر مع انهُ يوجد فيها حيةٌ بتراء شديدة الخطر تأوي محاجر الجبل المقطم وهي لا تمهل ملسوعها اكثر من بضع دقائق كما انها ذات جراءةٍ عظيمة وقد لدغت شاباً فلم تمهلهُ اكثر من عشرين دقيقة

اما الثعبان الناشر الكثير الانتشار في مصر فهو يخشى شرّ الانسان كما يخشى الانسان شرّهُ ولذا فانهُ يفرُّ منهُ الا اذا بادرهُ الانسان بالشر او داسهُ سهواً

اما اعراض نهش هذه الحيوانات السامة عند الانسان فهي تختلف بحسب نوعها وشدة تهيجها وموضع اللدغ اذ اللدغ اذا كان في الوجه فالموت قريب للغاية . وعلى العموم فالاعراض المشاهدة عند الملسوع هي اولاً الجراح الحاصلة من اللدغ ولها هيئةٌ مخصوصة تعرف بها وهي وجود وخزين متقاربين شكلهما ينطبق على شكل الكلاّبين ثم الاحساس بألم في الجزء المجروح قد لا يكون ثقيلاً في المبدأ ثم يأخذ هذا الألم في الامتداد الى الاجزاء المجاورة حتى يصل الى الاحشاء البطنية وياخذ العضو في الانتفاخ

وتغيُّر اللون الذي يكون كدمياً ثم رصاصياً ثم تظهر عليهِ الفقاعات التقرينية ويحصل للشخص اغمآء ويصير النبض دقيقاً متواتراً غير منظَّم ويحصل قيء صفراوي وعسر في التنفس وعرق بارد بمقدار وافر واضطراب في الإبصار وفي القوى العقلية وتحدث تشنجات عصبية متواترة ويرقان عام واحياناً يشعر الملسوع بآلام شديدة في القسم الشراسيفي ثم ان الدم الذي يسيل من الجرح الوخزي يكون مسودًّا واحياناً يستحيل الى مادة قيحية سائلة مصلية منتنة ويعقب ذلك ثقل الاعراض ثم الموت

ثم ان تحمُّل الانسان للدغ الحيات يختلف بحسب السن وقوة البنية فالاطفال سريعو الموت بهِ وكذا ضعاف البنية والسقمآء

اما معالجة هذه الآفة فقد تحيرت الاطبآء في طرق الشفآء منها كما ان الادوية العديدة والترياقات المركبة التي اخترعت لمعالجتها ومنها ما أُدخل فيهِ من اجزآء الحية نفسها ذهبت كلها بدون فائدة مما يدلنا على عجز صناعة الطب عن شفآئها . غير ان المعالجة المتفق عليها نهآئياً تختلف بحسب تهيج الحية وقوتها وقوة المصاب وموضع اللدغ ومدَّتهِ

فاذا كانت الحية قوية شديدة التهيج والغضب والسم المنسكب منها بمقدارٍ وافر في الجرح وموضع اللدغ سريع الامتصاص كالوجه مثلاً فالنجاة مستحيلة

واما اذا لُدغ الانسان في احد الاطراف مثلاً وهو الغالب فيتَّبع في معالجتهِ ثلاثة اطوار

(الأوَّل) اذا لم يُحدث السم الأ ظواهر موضعية يُبتدأُ بربط المحل

من اعلى الجرح حالاً من غير ان يكون الضغط قوياً لئلا يعوق الدورة الغائرة للطرف ولا بدَّ ان يكون الرباط عريضاً وبعد ذلك يوسَّع الوخز توسيعاً كافياً بجملة شقوق غائرة حتى ينتهي الى غور الجرح ويغسل بماء كثير غسلاً متتابعاً ثم يُدلك بعصارة الليمون بشبه فرشة كفرُش الاسنان ويوضع على الجرح محجم ذو طلمبة ماصَّة او يُمَصّ الجرح بالفم اذا كان الفم خالياً من الجروح والقروح والتسلخات ويكوى بكاوٍ كيماوي شديد كالحامض الكبريتيك المركز مثلاً او يكوى بالحديد المحمى الى البياض ويكون الكي غائراً على قدر الامكان وفي الآن الواحد تعطى مشروبات منبهة كالنبيذ الحار او النعناع ويحفظ المريض في فراشهِ مغطًّى تغطيةً جيدةً ليسخن جسمهُ ويُلف العضو الملسوع بقطن

(الثاني) اذا امتُصَّ السم وسرى في الاوعية فمتى جاء دور ردّ الفعل تمنع المشروبات المنبهة وتعوَّض بمنقوعات حارَّة مضادة للتشنج تعين على حصول العرق واذا وُجد برد وعرق لزج فلا بأس من اعطاء خلاصة الكنكينا من ٤ الى ٥ جرامات في ١٥٠ جراماً من النبيذ

(الثالث) تقاوَم الخراجات والخشكريشات من العوارض الثانوية بالشق كما يفعل في الفلغمونيات المنتشرة ولا بدَّ مع ذلك من تغذية مقوّية للمريض مع المعالجة المقوّية ايضاً

ثم ان بعض الاطباء استعمل الحقن ببرمنجنات البوتاسا ضد نهش هذه الحيوانات السامَّة في البلاد الحارَّة لكن لم يتحقق الى الآن نجاح هذا العمل

اما طرق الوقاية منها فعلى الانسان ان يتخذ كل الطرق الممكنة لعدم اعتراضها في طريقها او مبادرتها بالشرّ او مفاجأتها في اجحارها واذا اضطرّ الى مقاومتها فليس لهُ الا ان يقابلها بسلاحه ويعتمد على عقلهِ وذكآئهِ وان تمكن من القبض عليها فيكون بالقرب من رأسها او من ذنبها ثم يرجّها رجّاً حتى لا تتحوّل عليهِ وتلدغهُ ويضرب بها الارض ليحل فقراتها

ولا ينبغي للانسان ان يأمن شيئاً منها على العموم حتى الموجودة في أيدي الحواة والمشعوذين الذين يدَّعون نزع انيابها لما هو معلوم من ان انيابها ملتصقة التصاقاً متيناً بفكها العلوي لا يتيسر نزعها منهُ ولكن جل ما يفعلهُ هؤلآء ان يقصفوا انيابها فقط وهي سريعة العود الى ما كانت عليهِ لسرعة نموها او ينبت لها ما يحل محلها وعلى كل حال فلا يكون الدنوّ منها الا تعرُّضاً للخطر والله الواقي

السكة

المراد بالسكة النقود المسكوكة اي المضروبة من الذهب والفضة وغيرها وأصل السكة الحديدة المنقوشة التي تُضرَب عليها النقود ثم سميت بها النقود انفسها من باب المجاز المرسل . واستعمال السكة او في معناها قديمٌ جدًّا يرجع الى اوائل عهد المجتمع للاحتياج اليها في التعامل الا انها لم تكن في اول امرها تتخذ من المعادن المضروبة على ما هو الحال لعهدنا الحاضر ولكنهم كانوا يصطلحون على اصنافٍ من الموادّ التي تصلح لذلك كما لا نزال نراهُ الى اليوم في بعض الانحآء البعيدة عن مواطن المدنية فان الحبش مثلاً يستعملون الملح

يتخذونهُ في شكل قُضُبٍ مربعة وفي بعض جهات اميركا الشمالية يستعملون الجلد الذي تتخذ منهُ الفرآء وفي المكسيك يستعملون حبّ الكاكاو وفي بعض انحآء روسيا يستعملون قراضات من الجلد وفي بعض البلاد الافريقية يستعملون الصدف الى غير ذلك . الا انهُ لما كان غالب هذه الاصناف معرّضاً للتلف مع صعوبة التحرير في قيمها تنبه الناس لاستعمال المعادن المطروقة لانها اجمع للصفات المطلوبة وكانوا يتخذونها بهيئة محلول او سبائك يتعاملون بها بالوزن وهو ما كانت عليهِ المعاملة عند المصريين الاولين والعبرانيين ولا يزال يُتعامل بها كذلك في المملكة الصينية الى اليوم . ثم انهم لزيادة التسهيل في التعاطي جعلوها قِطعاً مقدَّرة من الذهب والفضة يحررون اوزانها وقيمها ويُرصِدونها للمعاملة ولاتقآء الغش فيها وسموها بختم صاحب البلاد ومن هنا ابتدأ عمل السكة الحقيقية

اما اختراع السكة فالذي ظهر من مباحثهم انها اول ما استُعملت عند اليونان لان كل ما وُجد من آثار الامم الاولى من المصريين والفرس والمادَويين والأشوريين والبابليين لم يُرَ فيهِ شيءٌ من النقود المضروبة واقدم سكةٍ وُجدت في العاديّات لا تتعدى الى ما ورآء القرن السادس ق م وكل ما وُجد منها في ذلك التاريخ من ضرب اليونان . والظاهر ان اول من ضُربت السكة على عهدهِ هو الملك اسكندر الاول ما بين سنة ٤٩٩ و ٤٥٤ . وكانت قاعدة مسكوكاتهم الدرهم وتحتهُ الاوبول وهو سدس الدرهم وفوقهُ الاستاتير وهو من الذهب وقيمتهُ عشرون درهماً وكانوا يضعون السكة على وجهٍ واحد من النقود منقوشاً عليها اشكالٌ هندسية تختلف باختلاف مصطلح البلدان

واشهرها الشكل المربع ومنها ما كان يُنقَش عليها صورة الاله الذي تنتسب اليهِ كل مدينة وربما نقشوا فيها احرفاً تُنتزَع من اسم المدينة او رموزاً تمثيلية تدل على معنًى من المعاني . وقد رؤيت قِطعٌ من اقدمها عهداً عليها صورة ثور واخرى عليها صورة بومة او دلفين ومنها ما كان عليها صورة باخوس اله الخمر وبجانبهِ عنقود عنب وكأس الى غير ذلك . وكان اسكندر الاول يضرب حروف اسمهِ وتبعهُ في ذلك خلفآؤهُ ثم صاروا يضربون صورة رأسٍ من رؤوس الآلهة واستمرّ ذلك الى زمن اسكندر الكبير المعروف بذي القرنين فضرب صورة نفسهِ وهو اول من فعل ذلك وكانهُ على جهة التأْلُّه وتتابع ملوك اليونان من بعدهِ على مثالهِ واقتفاهم في ذلك ملوك الرومان وكانوا يضعون صور اسلافهم الى زمن قيصر وهو اول من وضع صورة نفسهِ ثم لم يلبث غيرهُ ان تبعهُ ايضاً

اما العرب فكانوا في اوائل فتوحهم يقلدون المسكوكات القديمة من البيزنطيّة والساسانية ثم عدلوا عن ذلك الى الكتابة . قال ابن خلدون في كلامهِ على السكة وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة بها مثل تمثال السلطان لعهدها او تمثيل حصن او حيوان او مصنوع او غير ذلك ولم يزل هذا الشأن عند العجم الى آخر امرهم ولما جآء الاسلام اغفل ذلك لسذاجة الدين وبداوة العرب. وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزناً وكانت دنانير الفرس ودراهمهم بين ايديهم يردّونها في معاملتهم الى الوزن ويتصارفون بها بينهم الى ان تفاحش الغش في الدنانير والدراهم لغفلة الدولة عن ذلك فامر عبد الملك الحجّاجَ بضرب الدراهم وتمييز المغشوش من

الخالص وذلك سنة اربع وسبعين وقال المدائني سنة خمس وسبعين وكتب عليها الله احد الله الصمد . وقيل اول من ضرب الدنانير والدراهم مصعب ابن الزبير بالعراق سنة سبعين بامر اخيهِ عبد الله لما ولي الحجاز وكتب عليها في احد الوجهين بركة الله وفي الآخر اسم الله ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة وكتب عليها اسم الحجاج .. وكان الدينار والدرهم على شكلين مدوَّرين والكتابة عليهما في دوائر متوازية يكتب فيها من احد الوجهين اسمآء الله تهليلاً وتحميداً وصلاةً على النبي وآلهِ وفي الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة وهكذا ايام العباسيين والعُبَيديين والامويين .. ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سنّ لهم المهديّ اتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل وان يُرسَم في دائرة الدينار شكلٌ مربع في وسطهِ ويُملأ من احد الجانبين تهليلاً وتحميداً ومن الجانب الآخر كتباً في السطور باسمهِ واسم الخلفآء من بعدهِ . واما اهل المشرق لهذا العهد فسكتهم غير مقدَّرة وانما يتعاملون بالدنانير والداوهم وزناً بالصنجات المقدَّرة بعدّةٍ منها ولا يطبعون عليها بالسكة نقوش الكلمات بالتهليل والصلاة واسم السلطان كما يفعلهُ اهل المغرب . انتهى باختصار

وجآء في بعض المؤلفات الافرنجية ان الاتراك لما استولوا على القسطنطينية ضربوا النقود وعليها اسم السلطان بالحرف اليوناني وقد بقيت منها قطعٌ باسم السلطان محمد الثاني ثم لم يلبثوا ان استبدلوا الحرف اليوناني بالعربي على ما هو الحال اليوم . ويُروى عن السلطان صلاح الدين الايوبي انهُ نقش على مسكوكاتهِ ازهاراً من الزنبق واستمرَّ على ذلك مدةً ثم اهملهُ وعاد الى الكتابة والله اعلم

استنبات الشعر

جآء في احدى المجلات العلمية عن مكاتبٍ لها في الآستانة ان طبيباً من اهلها اذاع انهُ يُنبت الشعر في ايّ موضع شآء من الجسم حتى في راحة اليد . قال ولقد يترآءى لبعض المطالعين ان هذا ضربٌ من الخرافة او ان لمدَّعيهِ غرضاً ما ولكني احقق لهُ انهُ متسرع في هذا الظن وان الامر حقٌّ لا شك فيهِ والطبيب المذكور يفعل ذلك مجاناً لا يسأل عليهِ اجراً . بلى لا يُنكَر ان ذلك ليس من الاعمال التي في استطاعة كل انسانٍ ان يجريها ولكن لا بدَّ لهُ من براعةٍ فائقةٍ على حدّ ما يقتضيهِ سائر اعمال الجراحة اذ هو غير خارج عنها . وفيما يزعم هذا الطبيب انهُ عن قليل يمكن استبدال الشعر الذاهب كما يمكن استبدال السنّ مثلاً بسنٍّ صناعية غير ان الشعر الذي يغرسهُ في الجلد يعيش فيهِ ويتأصل وينمي ويكون متصلاً بأصل الخلقة على حدّ الشعر الذي يخلق مع الانسان لا كالسنّ التي تستعار وتبقى اجنبية عن الجسم

وهذا مع ما يظهر فيهِ من الغرابة وشبه الغلوّ فانهُ قد ثبت بتعدُّد التجارب وتكرر الامتحان وقد عقد الطبيب المشار اليهِ محاضرةً علمية جمع اليها طائفةً من اكابر اطبآء الآستانة وعرض امامهم هذا الاستنباط مع شرح الطريقة التي جرى عليها فيهِ وهي انهُ يغرس الشعر في الجلد كما يُغرَس الفسيل في الارض ثم اراهم شيئاً من الشعر كان قد غرسهُ في رأس انسان اقرع بأن احتزَّ قطعةً من جلدهِ الذي عليهِ شعر فالصقها بالمواضع التي

ذهب شعرها فعاد الشعر الجديد ينمي كالشعر الطبيعي

ولا يخفى ان هذه الطريقة ليس فيها ما يُستغرب عند من شهد التطعيم الحيواني الذي اصبح اليوم من الامور المتعارَفة حتى عند عامة الناس فمن المشهور ان الجرّاحين كثيراً ما ينقلون قطعةً من الجلد السليم فيلحمونها بموضع الجرح او القرحة فينشأ على ظاهر ذلك الموضع جلدٌ جديد يسدّ مكان الجلد الذاهب بالجرح او بتشوُّه احد الاعضاء او غير ذلك من الآفات وربما طعّموا العظم بمثل ذلك وليس في شيء من هذه الاعمال عجب وامر تعويض الشعر يتم على الطريقة نفسها

وما ننكر ان هذا الاستنباط لم يبلغ الى الآن تمام نجحهِ اذ لا يصدق في كل مرة بيد ان ذلك منوط بالحالة التي يُجرَى فيها العمل وبلباقة العامل ولا بدّ لتحقيق نجحهِ واطّرادهِ من تكرار التجارب حتى يُهتدى الى انجحها واصدقها

على ان كل ما اجراهُ الطبيب المذكور الى الآن لم يكن الا غرس عناصِ من الشعر في مثل ما ذُكر من مواضع القرَع ولكنهُ يرجو بل يتيقن انهُ يمكن ان يُتوصل بهذه الطريقة الى ردّ شعر الاصلع بتمامهِ الا ان ذلك لا يستغني عن استنباط طريقةٍ يُضمَن فيها نجاح العمل بحيث ان الجلد المطعَّم يكون على عمقٍ كافٍ واتجاهٍ موافق والا فلا يلبث الشعر الجديد ان يتناثر ويسقط . انتهى تحصيلاً

القوى العاقلة في الحيوان

حضرة الاب الفاضل الخوري قسطنطين الباشا (ب م)

اطلعت في الجزء الرابع من الضيآء على رد حضرة مناظري الفاضل على ما كتبت في الجزء الثاني واول ما ذكر فيهِ انهُ « لم يرَ من سياق كلامي على المبدأ الحساس فرقاً واضحاً بينهُ وبين المبدأ العقلي » وغاية ما طلبهُ مني « ان اقيم الادلة العلمية على مخالفة المبـدأ العقلي في الانسان والعجماوات » وهآءنذا ألبّي طلبهُ ولا اخاف على نفسي في هذا السبيل من « وعورة المسلك وعقباته ولا من اختلاف العلمآء وتنازع الآرآء » وقبل ذلك ارجو منهُ ان يسمح لي بالتنبيه الى ثلاثة امور (الاول) ان في كلامهِ ما يشبه التناقض بين « عدم اقتدار البهيمة على ادراك الكليات مثل الانسان » وقولهِ « ان ذلك لا ينفي كون المبدأ العقلي فيها وفي الانسان واحداً » لانهُ كيف يكون المبدأ العقلي واحداً في الاثنين اذا كان يختلف في الكمّ والكيف كما صرح بهِ من قبل

(والثاني) انهُ ادخل المسألة في طورٍ جديد وارتقى بهـا الى مذهب النشوء مما لا تسمح لنا اصول المناظرة بالبحث فيهِ قبل اتمام بحثنا في هذه المسألة وان تكن داخلة فيهِ فان الخروج عن موضوع البحث داعٍ للتشويش فيهِ وللملل القرآء الكرام

(والثالث) ان اطلاق لفظة اللغة بمعناها العام لا يصحّ ان يتخذ دليلاً قاطعاً على وجود العقل في صاحبها اذ يدخل في معناها اصوات الطير والحيوانات كما ذكر واصوات الآلات الناطقة كالتماثيل والتلغراف والفونوغراف وآلات

الموسيقى وما يسمى بلغة الازهار وغير ذلك مما تدل اصواتها واشاراتها والوانها على معنى فيها دون وجود العقل و يطلق عليها اسم اللغة كما يقال لغة الجرائد ولغة النبات وغير ذلك

***

لا ينكر حضرة مناظري الفاضل اننا نرى بوناً شاسعاً بين الانسان والحيوان ولم يكن هذا البون الشاسع الا لوجود حدٍ فاصل بين نوعٍ ونوع ولا ريب ان فصل الانسان الذي يميزهُ عن العجماوات هو عقلهُ او نطقهُ

ولا يخفى ان المبدأ الحساس او نفس البهيمة جوهر غير تام لا قيام لهُ ولا حياة ولا فعل الا في حالة التركيب اذ لا بد لهُ ان يكون متحداً بجسم مخصوص ملازمٍ لهُ لا يفارقهُ يولد ويعيش ويموت معهُ فلا ادراك لهُ الا بهِ على وجه مناسب لكل حاسةٍ فيهِ مما لا ارى موجباً للاسهاب في بيانهِ . اما المبدأ العاقل او نفس الانسان فهو جوهرٌ تام مستقلٌ بذاتهِ لا يحتاج ان يشاركهُ آخر في قيامهِ وافعالهِ وان يكن ملازماً للجسم ويحتاج اليهِ في بعض افعالهِ الا انهُ يستغني عنهُ لان ماهيتهُ البسيطة لا تحتاج الى الجسم الذي لا نسبة لهُ معها لانهُ روح ليس فيهِ شيءٌ من صفات الجسم وخواص المادة اذ لا ينسب لهُ كم ولا لهُ طول ولا عرض ولا جزء ولا حيز ومن صفاتهِ التي خُصَّ بها الفكر وادراك الكليات وحرية الاختيار والخلود او البقاء كما اقررهُ جرياً على هذا المبدأ « ان المسببات المتشابهة تنتج من اسباب متشابهة وبالعكس »

***

ترجع الافعال النفسانية الى ثلاثة اضرب او انواع وهي الحس والفكر والارادة ولا بد ان يكون لها ثلاث قوى تناسبها في الفعل الذي ينشأ عنها وقد تقدم بيان الحواس الظاهرة والباطنة التي يكمل بها ادراكنا المحسوسات مما يقتضي ثلاثة امور وجود سبب مؤثر في الخارج وآلة او حاسة خارجة في الجسم تنقل هذا التأثير وقوة باطنة تدركهُ اي تشعر بهذا التأثير الخارج. وبنآء عليهِ لا يتم فعل الحس الا في حالة التركيب بانتقال صورة المحسوس مفرداً معيَّناً بصفاتهِ المشخصة لهُ في حال التأثير من المكان والزمان والمقدار والصوت والنور والطعم والرائحة والحركة والسكون مما يؤثر في الحواس وهذه الصورة بسيطة لا شيء فيها من الجسم وسميت حسية لان النفس لا تحتاج في ادراكها الاّ الى الحواس

على انهُ مهما اتسعت دائرة ادراك المبدأ الحساس فهي جزئية سطحية لا تتناول سوى الظواهر مفرداً مفرداً فلا يدرك في الكون سرًّا ولا معنًى لطيفاً ولا حقيقةً كلية اذ تمنعهُ كثافة الجسم والحواس عن الترقي الى عالم العقول ولا تدع لهُ سبيلاً للتقدم الى ما بعدها من اسرار الكون

* * *

يسلم حضرة مناظري ان الانسان يدرك الكليات وان « لهُ فكرةً يستعملها لسدّ حاجاتهِ وبذلك اتسعت دائرة ادراكهِ الى حدٍّ اقصاهُ عن باقي الحيوان وانتقل من طور شركائهِ في ادراك الجزئيات الى طور ادراك الكليات وسميت لذلك قواهُ المدركة عقلاً » . ومعلوم ان ادراك الكليات لا يتم الا بالتعقل اي العلم الحقيقي بالشيء اي ان نعرف الشيء بماهيتهِ وخواصهِ الذاتية

التي يقوم بها وهو ادراك عقلي لصورة معنوية في الذهن مجردة عن الصفات المشخصة التي تقيدها بموضوع جزءي مفرد ويقال لتلك الصورة فكر وهو صورة حاصلة في الذهن او العقل مطلقة كلية غير مقيدة ولا معينة اذ ليس لها حد سوى الصورة النوعية او الحقيقة التي تشمل افراداً كثيرين ولهذا يقال لهذه الصورة العقلية كلية فالكلي المستون يختلف كل الاختلاف عن المفرد المحسوس والادراك العقلي او الفكر يختلف كل الاختلاف عن الادراك الحسي فلا بد اذاً ان يختلف المبدأ العقلي عن الحساس

(ستأتي البقية)

الاب لويس شيخو والقمر

اثبت لنا حضرة الاب لويس شيخو في الجزء الاخير من مشرقهِ المنير ان « القمر كمُدٍّ » (بتشديد الدال) « اي على شكل مُـدّ » وبرهانهُ على ذلك انهُ رأى هذه اللفظة في نسخة القزويني المطبوعة في لبسك مضبوطة « بتشديد الدال » (كذا . . .) . ونحن نزيدهُ على ذلك برهاناً آخر وهو أن بعض الذين لجأوا ليلة امس (١٣ نوفمبر) الى ساحة الهرمين هرباً من مذنَّب فالب اخبروا انهم رأوا ملَكاً عظيماً ضخم الجثة قد ظهر من الافق الغربيّ ملتحفاً بالغمام فتناول ذلك المدّ بيدهِ وشرع يطوف في نواحي السمآء فيكيل بهِ النجوم ويقذفها في عُرض الفضآء . . . . .

فبقي على حضرة الاب الفاضل ان يبرهن لنا كيف يحدث كسوف الشمس « عند إبدار القمر » (كذا) اي في وقت كون القمر بدراً كما افادنا

ذلك في مشرقهِ الباهر (ص ٩٩٩) فانا الى ظهور الجزء الاخير منهُ كنا نظن ان حضرة الاب امامٌ في اللغة فقط فاذا هو من العلمآء المتبحرين في الفلك ايضاً والفضل بيد الله يؤتيهِ من يشآء

اسئلة واجوبتها

قنا – نرجو الاجابة على هذين السؤالين

(١) ما معنى « ليت شعري » وكيف تُعرَب

(٢) ما اصل استعمال لفظة « الديوان » من دواوين الحكومة ومن اي تاريخٍ بدأ استعمال هذه اللفظة وهل تدل على معنىً آخر

رياض يوسف حنا

الكاتب بقنا

الجواب – معنى ليت شعري ليتني اشعر وخبر ليت محذوف اغنى عنهُ مفعول شعري والتقدير ليت شعري حاصلٌ . واما الديوان فهو لفظٌ اعجميٌّ واصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوماً الى كتَّاب ديوانهِ وهم يحسبون على انفسهم كانهم يحادثون فقال « ديوانه » اي مجانين بلغة الفرس فسمي موضعهم بذلك وحُذفت الهآء لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقيل ديوان ثم نُقل هذا الاسم الى كِتاب هذه الاعمال المتضمن للقوانين والحسبانات اه . قالهُ ابن خلدون . قال في لسان العرب واول من دوَّن الديوان (اي عند العرب) هو عمر رضي الله عنهُ وهو فارسيٌّ معرَّب . وفي التاج وقال الماوردي في الاحكام السلطانية ان الديوان موضوع لحفظ ما تعلق بحقوق السلطنة من الاعمال

والاموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال · قال المؤلف وذكر غير واحدٍ انهُ انما سمي بهِ لان كسرى لما اطلع على الكتاب ومعاملاتهم في سرعةٍ قال هذا عمل ديوان اي هذا عمل الجنّ فان دِيو بالكسر الجنّ والالف والنون علامة الجمع عندهم فبقي هذا اللقب هكذا · وقال المناوي الديوان جريدة الحساب ثم أُطلق على الحاسب ثم على موضعهِ · وفي شفآء الغليل أُطلق على الدفتر ثم قيل لكل كتاب وقد يُخَصّ بشعر شاعرٍ معين مجازاً حتى جآء حقيقةً فيهِ فمعانيهِ خمسة الكتبة ومحلهم والدفتر وكل كتاب ومجموع الشعر · انتهى

آثار ادبيّة

القرائد الجوهرية في الطُرَف النحوية ـ أُهديت لنا نسخةٌ من هذا الكتاب تأليف حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ طنطاوي جوهري من متخرجي الازهر الشريف نحا فيهِ ترتيب ابواب الالفية وذيل ابوابهُ بتمرينات مفيدة فنحضّ طلاَّب هذا العلم على مقتناهُ ونرجو لمؤلفهِ جميل الجزآء

الكوثر ـ هو عنوان مجلة علمية ادبية مدرسية لحضرة منشئها جورج افندي طنوس ومديرها توفيق افندي فرح وقد اطلعنا على الجزءين الاوَّلين منها فوجدنا فيهما عدة مقالات ونُبَذ مفيدة · وهي تصدر مرتين في الشهر وقيمة الاشتراك فيها عشرة غروش مصرية لتلامذة المدارس وخمسة عشر غرشاً لغيرهم فنحث الطلبة والمستفيدين على اقتنآئها ونرجو لها مزيد النجاح

فكاهات

رواية

جزآء الاحسان (١)

اشتهر احد كبرآء الانكليز بالغنى الوافر وعمل الخير والاحسان ومساعدة البائسين واغاثة الملهوف حتى لم يكن هناك من لم يحترمهُ ويدعُ لهُ بطول البقآء والخير . ولم يكن لهُ سوى ولدٍ وحيد يدعى فيليب رباهُ منذ حداثتهِ على اطوارهِ واخلاقهِ آملاً انهُ عند ما تحنيهِ الايام وتقيدهُ الشيخوخة عن السعي يقوم ولدهُ هذا مقامهُ في تدبير املاكهِ وضبط ثروتهِ واقتفآء اثرهِ في المبرات والاحسان . ولما بلغ فيليب الحادية عشرة من عمرهِ دعاهُ والدهُ اليهِ وقال لهُ قد حان وقت ارسالك الى المدرسة الجامعة لإكمال دروسك وانهُ ليشقُّ عليَّ مفارقتك هذه المدة وانت محل تسليتي وسروري لكن حب مستقبلك يدفعني الى ذلك فكن رجلاً يا عزيزي وجاهد ما استطعت وعُد اليَّ قبل فنآء حياتي لارى خليفة اللُرد لنكستر ووارث مجدهِ

فبرقت اسرَّة الغلام وقال ان هذا غاية ما اتمناهُ وما كنت انتظرهُ منك يا والدي وهآءنذا مستعدٌّ للذهاب وسأرجع اليك ان احياني الله رجلاً جديداً لا تخجل ان تدعوهُ ابنك . ثم خفض صوتهُ وحنى رأسهُ قليلاً

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

وقال غير اني قبل ذهابي اسالك نعمةً واحدةً يا ابي فهل تسمح لي بها . قال سلني ما تشآء يا عزيزي ولو رمت ان تجعل فؤادي كرةً تلعب بها لما منعتكهُ . قال انت تعرف جورج ابن الغسالة رفيقي في اللعب فهو يتيمٌ فقير لا معين لهُ ولا مجير سوى والدتهِ المسكينة التي لا تكاد تتمكن من اشباعهِ الخبز وقد علمت انهُ ميالٌ للعلم فانهُ كثيراً ما قال لي والدموع في عينيهِ انهُ يفضل الموت على ان يبقى جاهلاً وانت يا والدي لديك من المال ما يمكنك من مساعدة الايتام والمساكين فهلاً حسبت جورج اخاً لي وارسلتهُ واياي لنتعلم معاً

فلم يملك الوالد عبرتهُ عند هذا الكلام فمسح دموعهُ ثم رفع ولدهُ الى صدرهِ وقبَّلهُ وقال لك ما تحب يا فيليب فاذهب وقل لجورج انك ستأخذهُ معك وعلى نفقتك واستعدّ الآن لتسافرا في اول الاسبوع القادم . فانحنى الولد على يدي والده يقبلهما ويغسلهما بدموع الشكر ثم اسرع الى صديقهِ المسكين يبشرهُ ويتشاطران السرور

وفي الاجل المعين سافر اللرد لنكستر بالولدين بعد ان جهزهما بكل ما يحتاجان اليهِ فاوصلهما الى المدرسة واوصاهما واوصى بهما ثم ودعهما ورجع الى زوجتهِ واقاما يتشاكيان مرارة فراق الغلام ويحسبان الايام لرجوعهِ

وبعد ثماني سنوات اكمل الولدان دروسهما وحصّلا الشهادات والامتيازات التي استحقاها باجتهادهما وعادا الى الوطن يطفح وجهاهما بالسرور والبشر . وبعد ان اقاما مدةً دعا اللرد ولدهُ فيليب وقال لهُ تعلم اني قد صرت رجلاً مسنّاً وعن قليل سيقعدني الهَرَم عن الاشغال فلا بدّ لك ان تترشح

لان تنوب عني في تولي مهماتنا وقد رأيت ان اجهزك بألفي ليرة تتعاطى بها اعمال التجارة مدةً من الزمن وقصدي بذلك ان تختبر اخلاق الناس ومعاملاتهم حتى تعرف كيف تتصرف بينهم في مستقبل ايامك فهل تميل الى ذلك . قال اني اتعاطى ذلك بكل سرور ولا سيما وان فيهِ مرضاة والدي وسرورهُ ومنفعتي في المستقبل لكن يسمح لي والدي ان اذكر لهُ امراً واحداً . قال قل يا عزيزي ما بدا لك . قال انك قد انعمت على صديقي جورج بادخالهِ معي في المدرسة حتى احرز من العلم مثل ما احرزتهُ انا واضحى بمنزلة ولدٍ لك واخٍ حقيقيٍ لي وقد اصبح الآن في سنٍ وحالٍ هو فيهما احوج الى المساعدة فهل تسمح ان اشاطرهُ المبلغ الذي عينتهُ لي ليكون لهُ رأس مالٍ يستعين بهِ على معيشتهِ . قال أفعل بكل نفسٍ طيبة وازيدك الفاً اخرى عوض الالف التي ستُقسم لصاحبك جورج ثم دخل مكتبتهُ وقطع لهُ حوالةً بمبلغ ثلاثة آلاف ليرة فاعطى جورج منها نصيبهُ . فلم يدرِ جورج باي عبارةٍ يشكرهُ على ذلك ثم جآء الى والدهِ اللرد فحيا بتأدُّب ثم وقع على قدميهِ يقبلهما وقال اني قد حرمني الدهر والدي واسباب المعيشة ولكن الله عوَّضني اباً شفيقاً اقدر منهُ على تسهيل سعادتي ورزقني صديقاً هو ابرّ بي من الاخ الشقيق فقد جعلتماني من العدم شيئاً ورفعتماني من الفقر المدقع الى السعادة والرخآء فانا اشكركما ما حييت ولا اقول انني يوماً ما أفي بعض جميلكما لانني وما لي عبدكما ولكما

ثم استقل جورج بتجارةٍ تعاطاها وخدمهُ التوفيق فنجح وابدى فيليب فيما تعاطاهُ من الاشغال مهارةً وحذقاً عجيبين حتى انشرح صدر والدهِ

وتيقن حسن مستقبل ولدهِ واحيآء مجدهِ ومجد أسرتهِ ومن هنالك اخذ يفوّض اليهِ الشيء بعد الشيء من مهامّهِ واشغالهِ فقام بها احسن قيام

وكان فيليب كلما سمحت لهُ الفرص يركب عربةً ويجول في انحآء المدينة للنزهة وترويح النفس من مشاقّ الاشغال وبينا كان كذلك في بعض الايام اذ وقعت عينهُ على نافذة دار لاحد الكبرآء فرأى فيها فتاةً بديعة المحاسن اخذت بمجامع قلبهِ فلم يلبث ان أُخذ بشرك هواها ولبث بعد ذلك كلما خرج للنزهة يمرّ بذلك الموضع فيرى فاتنتهُ كانها بانتظارهِ وكانت بالحقيقة قد اصابها مثل ما اصابهُ من الوله والهيام فلم تعد تستمرئ طعاماً ولا تسرّ بشراب بل تنتظر كل يوم موعد مرورهِ فيكتفيان بتصعيد الزفرات وارسال سهام الاعين لشق الصدور

وما كان عبق هذا المسك ليختفي عن ذكآء اللرد لنكستر بعد ما رأى من ضعف ولدهِ وهزالهِ فاخذ يستدرجهُ بما طُبع عليهِ من الرقة والتلطف والحنكة الممزوجة بالحنو الوالدي الى ان اعترف لهُ بالحقيقة وقال لا اكتمك يا ابي انني رأيت فتاةً طرحتها التقادير في طريقي والصقتها بفؤادي وعلمت انها تحبني كما احبها فاذا جعلها الله نصيبي عشت سعيداً واذا حرمنيها الدهر قلت على الحياة السلام · فقال اللرد ان غاية ما اتمناهُ يا فيليب انا ووالدتك ان نرى لك شريكةً في حياتك تشاطرك احوالها وتكفل لك السعادة والهنآء بشرط ان تكون من الفتيات الشريفات اللواتي لا يضيع بهنَّ دم لنكستر فمن هي فاتنتك يا ترى فان كانت ممن احبهنَّ لك بذلت وسعي في تسهيل زواجك بها وايقنت اني انحدر الى قبري بسلام ·

قال اني قد بحثت عنها يا والدي وهي مريم ابنة اللرد يُرك ووارثتهُ الوحيدة. فلما سمع والدهُ ذلك قطب حاجبيهِ فقال فيليب ما لي اراك قد استأت. عفواً يا والدي العزيز فاني لا اشتري كل نسآء العالم بأن تستآء ولو طرفة عين. فقال اني لم استأ يا عزيزي بل اعجب من مهارتك في الانتخاب فليس في كل انكلترا من اتمناها لك اكثر منها. غير اني تذكرت اطوار والدها وحقدهُ عليّ لاسبابٍ قديمة فعسى ان تكون حادثتكما هذه سبباً لابطال الضغائن وتجديد علاقات المصافاة

ثم انهُ في نفس الاسبوع احيا اللُرد يُرك ليلةً احتفل فيها بعقد خطبة فيليب لمريم بمشهد الانسبآء والاصدقآء. واخذ الخطيبان يتزاوران ويوثقان علائق الوداد الا ان ذلك لم يكن ليغير اطوار الوالدين فلبثا على ما كانا عليهِ من المقاطعة والتدابر

وبعد مدةٍ استدعى اللُرد يُرك صهرهُ وقال لهُ انني احبك جدًّا ياعزيزي فيليب ولا اجهل مقدار ثروتك واقتدارك على ان تعيش في اسعد حال ولكن اعلم يا ولدي ان لا حالة تدوم وربما لا سمح الله انقلبت بك احوال الدهر وذهبت اموالك فهلاَّ تعلمت صناعةً او فنًّا يقيك من الفاقة ويكون سلاحاً لك في وجه النوازل وعوناً على المقادير. فاذا قبلت نصيحتي فاني اشير عليك بتعلم الطب فانهُ صناعة شريفة اذا احتجت اليها تكفل لك مستقبلاً سعيداً. قال انهُ رأيٌ حسن ونصيحة مقبولة ولكن .... قال ولكن يصعب عليك فراق مريم ... أفلست رجلاً اولا يمكنك ان تملك ارادتك اربع سنوات مدة تغيبك وانا اتيقن ان هذا الغياب يوثق اسباب

حبكما ويكون اصلح لزواجكما اذ لا تزالان حديثي السن

وبعد محادثة قليلة وعد فيليب بالاجابة الى رأي حميهِ بعد استشارة والديهِ وحبيبتهِ . اما الوالدان فلم يمكنهما الا استصواب الرأي ولو كرهاً واما مريم فلم تجب الاّ بسكب العبرات ولم تسمح بسفره الا بعد ان اقنعها والداها بلزوم ذلك . وهكذا سافر فيليب بعد الوداع وتوطيد عرى الولآء وكلف صديقهُ جورج ان يكون وكيلاً للرسائل بينهُ وبين مالكة فؤادهِ ولم يكد يصل الى مدرستهِ حتى خطَّ لها اسطر الشوق وعبارات الحب وفي اليوم الثاني ورد عليهِ جوابها ولم تزل المكاتبات متصلة كل يوم مدة السنة الاولى . وكان فيليب في الوقت نفسهِ يجهد قواهُ في دورسهِ حتى أُعجب بهِ اساتذتهُ ونزل من قلوبهم منزلة الحب والاكرام

وفي اوائل السنة الثانية اتاهُ من حبيبتهِ كتابٌ تقول فيهِ « لا تنتظر ياعزيزي فيليب ان اكتب اليك يومياً كالعادة فانهُ لم يعد عندي ما اكتبهُ واني اخاف ان يعوقك اتصال مكاتباتنا هذه عن دروسك ويطيل غيابك عن محبتك مريم » .. فاجابها فيليب ان كثرة المراسلات لا تعوقهُ عن دروسهِ بل تزيد في رغبتهِ ونشاطهِ وتقويّهِ على احتمال مرارة الفراق . غير انهُ في ذلك الاسبوع لم يحصل على جواب منها فانكسر قلبهُ وحزنت روحهُ وامتنع عن الطعام فذبل ورد وجنتيهِ وفارقت شفتيهِ تلك الابتسامات الحلوة ولاحظ اساتذتهُ ورصفآؤهُ حزنهُ فاجتهدوا جميعاً في ملاطفتهِ وتسليتهِ . وفي الاسبوع الثاني ورد على فيليب رسالة من صديقهِ جورج يقول فيها « لا بدّ ايها الحبيب انك في قلقٍ لانقطاع مريم عن

مكاتبتك واني رأيت فيها هذه المدة تغيراً عظيماً فهي على ما اظن قد مالت عنك الى سواك واني انصح لك ان تقلع عن هواها ولا تهتم بمن لا يهتم بك فان سلوّها من الآن مع ما فيهِ من الصعوبة افضل من زيادة تملقك بها وهي لا تميل اليك » . فما كاد فيليب يتم قرآءة هذه الكلمات حتى شعر كأن روحهُ قد اختطفت من بين تراقيهِ وسقط لا يعي شيئاً . ولما رآهُ رئيس المدرسة امر بنقلهِ الى سريرهِ وعين لهُ طبيباً يتعهدهُ وممرّضةً تسهر عليهِ فبقي اسبوعاً كاملاً تحت اشدّ اثقال الحمى لا يُعرَف بقآؤُهُ في الحيـاة الاَّ من صياحهِ تحت غيبوبة الحمى بالفاظٍ متقطعة واسمآءٍ مبهمة . ولما اخذ يتعافى وعلم بوجود الممرّضة سألها عن نسبها ووطنها ولما علم انها آتيةٌ من بلدهِ سألها هل تعرف أسرة اللرد يُرك فاجابتهُ انها تعرفها . فسألها هل تعرف ابنتهم مريم فقالت انني خدمت في بيتهم ستة اشهر لتمريض والدة اللرد وقد علمت ان مريم كانت مخطوبة لابن اللُرد لنكستر وان خطيبها سافر لاشغال لم اعلمها ووكّل صديقاً لهُ اسمهُ جورج ليكون واسطة المكاتبة بينهما وكان جورج يقوم بما فُوّض اليهِ بكل امانة . فلما استدعوني اليهم رأيت جورج المذكور يبذل جهدهُ في الزيارات لمريم وتسليتها وايصال المكاتبات اليها وكان بعد دخولي بيتهم يظهر لي ميلاً والتفاتاً غير عاديين ولم تطل المدة حتى اعترف لي بحبهِ وميلهِ للاقتران بي فاغتررت بكلامهِ غير عالمة بمقاصدهِ السيئة واعمالهِ الدنيئة . ثم كثرت زياراتهُ لبيت اللرد وكنت احسب ذلك حسب قولهِ رغبةً في مشاهدتي الى ان قدم ذات ليلةٍ وهو يتهلل فرحاً ثم دخل بي الى غرفتي وقال انني قد ادركت مرامي يامرثا . قلت

في ماذا قال فيما اشتغلت بهِ سنةً كاملة فانني من حين وقوع نظري على مريم احببتها وعزمت على استخلاصها من فيليب بأية حيلةٍ استطعتها وقد وجدت صعوبةً عظيمة في اوّل الامر لكن طول غياب خطيبها خفف من حبها لهُ حتى امكنني اجتذاب قلبها وفي هذا النهار حصلت على وعدها بالاقتران بي . اما اظهاري الحب لكِ فلم يكن الاَّ لمساعدتي في دخولي وخروجي بدون نكير فها انا اودّعكِ واتمنى لكِ الخير . وقبل ان اتمكن من مجاوبتهِ تركني وذهب وفي الصباح تأكدت ما سمعت فان مريم نفسها اخبرتني انها احبت جورج وستقترن بهِ في آخر يوم من الشهر الحالي

وكان فيليب كمن يسمع الحكم عليهِ بالاعدام وكانت حرارة الحمّى تزيد اضطراب دماغهِ غير انهُ تجلَّد وقال لها اذاً تركت خطيبها الاوَّل وستتزوَّج ومتى سيكون عقد القران . قالت ميعاد اكليلها مسآء غدٍ الساعة التاسعة في كنيسة القديس بولس

ولم يقوَ فيليب على الكلام بعد فسقط في غيبوبةٍ من الحمى المحرقة التي جددها عليهِ هذا النبأ وظنتهُ الخادمة قد نام فخرجت واغلقت الباب . ولما كان المسآء استيقظ فيليب فجمع قواهُ المتضعضعة وجهَّز امتعتهُ وكتب الى رئيسهِ كتاباً يقول فيه « ان اسباباً مهمة تستدعي ذهابي الى بيتنا حالاً ولو استأذنتك في الذهاب لما سمحت لي خوفاً على صحتي ولذلك اضطررت ان افرّ فاعذرني على خرق القانون هذه المرة الوحيدة . » ثم وضع الرسالة على سريرهِ وانتظر الى ان انتصف الليل فانسلَّ في الدهليز الخارجي الى حديقة المدرسة ووثب منها الى الشارع واخذ يجري مدفوعاً بالعوامل الفعالة

في دماغهِ وحرارة الحمى وهو لا يبالي بهزيم الرعد وانسكاب المطر وما زال يعدو حتى بلغ محطة السكة الحديدية فوجد القطار قد سافر وهو يسمع صفيرهُ فعضَّ على يديهِ تلهفاً وجرى في اثر القطار لعلهُ يدركهُ ولما رأى عدم امكان ذلك عزم ان يتابع سيرهُ فاما ان يصل المدينة في الميعاد او يموت في الطريق. فكان يقع تارةً ويقوم اخرى في ذلك الليل المزعج حتى وصل الى الكنيسة قبل ميعاد الصلاة بثلاثين دقيقة وكانت مفتوحةً ومزينةً بالازهار والانوار فانسلَّ بدون ان يُرى واختفى بين ازهار المذبح منتظراً قدوم العروسين . فلما حضرا وباشر الكاهن رسوم الاكليل خُيّل للعروس انها رأت شبح خطيبها الاوَّل فارتعدت فرائصها ولما سألها الكاهن عن قبولها جورج بعلاً لها واجابت نعم تحقق لها ان الشبح الذي رأتهُ هو نفس فيليب فصاحت صيحةً عظيمةً وسقطت مغشياً عليها. واغتنم فيليب فرصة انهماك الحضور فخرج مستتراً وتوجه الى بيتهِ وكان والداهُ خارج البيت فاوصى الخادم ان يعرّفهما بمجيئهِ حال رجوعهما . ولما دخل غرفتهُ شعر بانحطاط قواهُ فاسرع الى مكتبتهِ وكتب رسالتين في غاية الاختصار الاولى الى مريم يقول فيها « اني لم ازل الى دقيقة موتي مقيماً على حبكِ اميناً على عهودي ولو كان عندكِ ذرّةٌ من الوفآء لما تركتني وانشغفتِ بجورج الخائن الذي لم يرَ ان يكافئ احساني باحسن من هذا. فكفاني انتقاماً منكِ ان تكوني زوجة خائنٍ جاحد للجميل وكفاني انتقاماً منهُ ان لهُ زوجةً متقلبة الاطوار لا تدري معنى الحبّ . وجل ما اطلب منكما يا قاتليَّ ان تمرّا على قبري وتقولا رحمهُ الله لقد احسن الينا وكان اميناً . واما الرسالة الثانية

فكانت الى والديهِ يخبرهما بتفاصيل قصتهِ ويتمنى ان يراهما قبل وفاتهِ ويصبّرهما ويعزّيهما على فقدهِ . ثم وضع الرسالتين على مائدتهِ ولما لم يعد قادراً على الحركة انطرح بقرب سريرهِ واستعدّ للموت وهو يتضرّع الى الله من قلب كسير ان يمهلهُ ريثما ينظر والديهِ نظرة الوداع

ولمّا جآء والداهُ وعلما برجوعهِ اسرعا الى غرفتهِ ولما بلغا الباب امسك اللاورد بذراع زوجتهِ وقال لها لا تقطعي صلاتهُ ولننتظر هنيهةً اما فيليب فكان يسمع كلامهما وهو غير قادر ان يبدي اقل اشارة ولما طال الوقت ورأت والدتهُ الحالة التي كان فيها لم تستطع صبراً فدخلت والقت نفسها على ولدها ففتح فاهُ كمن يحاول الكلام ثم فاضت روحهُ بين ايدي والديهِ

. . . .

وبينما كانت كؤوس الافراح دائرة في بيت جورج وصلت رسالة فيليب فقرأتها مريم وهي غائبة الرشد ثم صرخت نعم انا الخائنة انا القاتلة فقد قتلتهُ بيدي . كلا يا جورج لن اكون عروساً لك فانني قاتلة وانك خائن وقاتل . فاسرع جورج واختطف الرسالة من يدها ولما قرأها فقد عقلهُ من تبكيت الضمير فتناول مسدّساً وقبل ان يتمكن احدٌ من امساكهِ الهب برصاصهِ دماغهُ . وفي اليوم الثاني خرجت مريم الى ديرٍ لاخوات الرحمة فاقامت بهِ وبعد ان مضت عليها عشرة ايام دخلت الراهبات غرفتها فوجدنها ملقاةً على سريرها جثةً بلا روح وبجانبها وصاتها الاخيرة تناشدهنَّ فيها ان يدفنَّها في قبر فيليب وان يُنقش على ضريحها « لم تجمعنا الحياة فجمعنا الموت »
